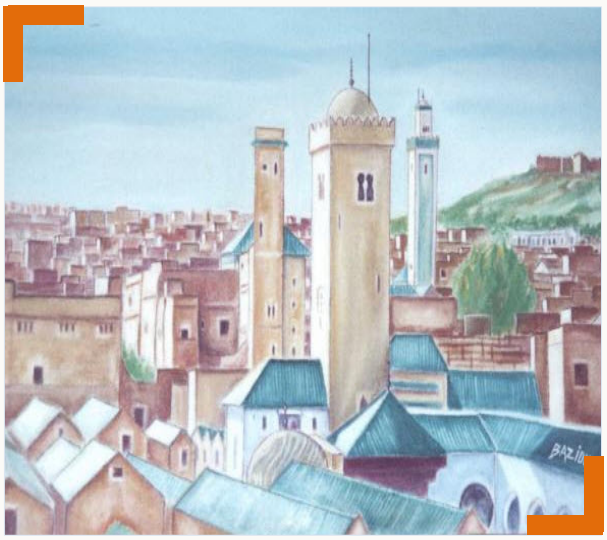

فاس حلقة للتفاعل الحضاري بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث وبداية المعاصر

د. الحسين عماري

أستاذ التعليم العالي مساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة المولى سليمان – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

الحسين عماري، فاس حلقة للتفاعل الحضاري بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث وبداية المعاصر.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع عشر؛ سبتمبر ٢٠١٢. ص ١٠٦ – ١١١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص*

يسعى هذ المقال إلى إبراز الدور الفاعل الذي اضطلعت به فاس في العلاقات التي تمت بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث وبداية المعاصر، إذ شكلت حلقة للتواصل التجاري والثقافي والروحي بين الطرفين، كان لها الفضل في حدوث تلاقح وتفاعل حضاري وظهور تراث مغربي – إفريقي مشترك سيظل شاهدًا عبر التاريخ على عمق الروابط والصلات بين الجانبين المغربي والسوداني. أما المحاور الأساسية التي سيتناولها المقال، فتتمثل في: (المكانة التي حظيت بها فاس في العلاقات التجارية التي تمت بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، والعوامل التي كانت وراء ذلك. ودور فاس في التواصل الثقافي والروحي بين الجانبين ومظاهر هذا التواصل).

مقدمة**

يرجع تاريخ تأسيس مدينة فاس إلى نهاية القرن الثامن الميلادي إبان مجيء المولى إدريس الأول إلى المغرب سنة ٧٨٩م، حيث بنيت النواة الأولى للمدينة على الضفة اليمنى لوادي فاس بجي الأندلسيين. وفي سنة ٨٠٨م أسس إدريس الثاني مدينة جديدة على الضفة اليسرى لوادي فاس بجي القرويين. وكانت عدوة الأندلسيين محاطة بالأسوار، تخترقها ستة أبواب ولها مسجد جامع. وفي المدينة القديمة المقابلة قام إدريس الثاني كذلك ببناء سور ومسجد بالإضافة إلى قصر وسوق. وقد عرفت فاس في هذا العهد انتعاشًا اقتصاديًا وعمرانيًا منقطع النظير لتواجدها في منطقة سهل سايس الخصبة، ولتوفرها على موارد متعددة ومتنوعة ضرورية للبناء كمادتي الخشب والأحجار المتوفرة بغابات ومقالع الأطلس المتوسط القريب، بالإضافة إلى وفرة الملح والطين المستعمل في صناعة الخزف.

تحظى فاس بموقع استراتيجي مهم باعتبارها ملتقى للطرق التجارية بين الشرق والغرب، خاصةً تلك التي كانت تربط سجلماسة بشمال المغرب. كما شكلت ساكنة المدينة خليطًا من أمازيغ الأطلس المتوسط والقرويين والأندلسيين واليهود الذين ساهموا في تطورها العمراني والاقتصادي والثقافي. وفي سنة ٨٥٧م قامت فاطمة الفهرية بتشييد جامع القرويين بالضفة اليسرى لوادي فاس الذي تم توسيعه فيما بعد من طرف يوسف بن تاشفين المرابطي (١٠٦١ - ١٠٦٠م)، بعد استيلائه على المدينة سنة ١٠٦٩م، كما عمل على توحيد الضفتين داخل سور واحد وساهم في إنعاش الحياة الاقتصادية ببناء الفنادق والحمامات والمطاحن.

وبعد حصار دام تسعة أشهر، استولى الموحدون على المدينة سنة ١١٤٣م. وتحت حكم الدولة المرينية، عرفت مدينة فاس عصرها الذهبي إذ قام أبو يوسف يعقوب (١٢٨٦ - ١٢٥٨م) ببناء فاس الجديد في سنة ١٢٧٦م حيث حصنها بسور وخصها بمسجد كبير وبأحياء سكنية وقصور وحدائق. وخلال القرن السابع عشر

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

عرفت فاس بناء حي خاص باليهود يعتبر أول (ملاح) بالمغرب. وبعد فترة طويلة من التدهور والتراجع بسبب القلاقل التي عرفتها البلاد، احتل السعديون المدينة سنة ١٥٥٤م. وبالرغم من انتقال عاصمة الحكم إلى مراكش خص السعديون مدينة فاس ببعض المنجزات الضخمة كتشييدهم لأروقة جامع القرويين، وعدد من القصور، وترميم أسوار المدينة، وبناء برجين كبيرين في الجهتين الشمالية والجنوبية لمدينة فاس.

ونتيجة للاضطرابات التي عرفتها الدولة السعدية انقسمت فاس إلى مدينتين: (فاس الجديد) و(فاس البالي). وفي سنة ١٦٦٧م، تمكن العلويون من الاستيلاء عليها. وفي التاريخ الحديث، كانت فاس عاصمة للمملكة المغربية حتى سنة ١٩١٢م (فترة الاحتلال الفرنسي والتي استمرت حتى ١٩٥٦م)، وتم فيها تحويل العاصمة إلى مدينة الرباط. هاجر العديد من سكان فاس إلى المدن الأخرى وخاصةً يهود المدينة، إذ أفرغ حي الملاح تمامًا من ساكنيه، وكان لهجرة السكان من المدينة أثرًا اقتصاديًا سيئًا.

أولاً: دور فاس في العلاقات التجارية التي نمت بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الحديث وبداية المعاصر والعوامل التي ساعدت على ذلك

لعبت مدن ومراكز جنوب المغرب وشماله خلال العصر الحديث وبداية المعاصر دورًا رئيسًا في العلاقات التجارية التي تمت بين المغرب وبلاد السودان، حيث شكلت نقط انطلاق أو وصول القوافل التجارية المتوجهة أو القادمة من إفريقيا جنوب الصحراء، مما جعلها تمثل بحق "القلب النابض لنظام تجارة القوافل".[١] وقد تفاوتت أهمية هذه المراكز حسب الفترات التاريخية، وتبعًا لتحولات المشهد السياسي وكذا التطورات الاقتصادية التي عرفها شمال وجنوب الصحراء، كما أن هذه المراكز كانت تشع وتخبو تبعًا للتحول الحاصل في المحاور التجارية، وكلما كانت هذه المحطات بعيدة عن السواحل إلا وظهرت موانئ ارتبط ازدهارها أو تدهورها بالمركز الذي كانت ترتبط به.[٢]

ومن المدن المغربية التي كان لها حظ وافر في نسج العلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء، مدينة فاس التي شكلت محطة من أهم محطات التجارة الصحراوية، ويعود انفتاحها هذا على الواجهة الصحراوية، وكذا الروابط التجارية التي لم تنقطع بين الطرفين حتى أثناء الأزمات السياسية إلى فترة مبكرة من العصر الوسيط.[٣] وقد ارتكزت هذه المكانة التي حظيت بها فاس في العلاقات التجارية التي تمت بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء على مجموعة من الأسس والعوامل المساعدة، نذكر منها:

- **موقعها الجغرافي** المتميز الذي مكنها من الإشراف على أهم الطرق التجارية المنطلقة والمؤدية إلى جميع الاتجاهات، وجعل منها مركزًا تجاريًا عالميًا ونقطة عبور ضرورية بين المغرب الأقصى وباقي دول شمال الصحراء،[٤] حيث امتدت من هذه المدينة أهم المحاور التجارية الرابطة بين المغرب الأقصى وتنبكت،[٥] كالمحور الأوسط وهو إحدى المحاور الأساسية التي تمت عبرها العلاقات التجارية بين الجانبين خلال القرن الخامس عشر،[٦] وقد امتد من فاس إلى قصور سجلماسة عبر صفرو ووادي زيز أو "طريق النخيل"[٧] في اتجاه تنبكت عبر كل من تغازى وأروان،[٨] وتميز بقصر مسافته لكنه كان أكثر صعوبة بحكم مراحله الطويلة وقلة مناطق وجود الماء به،[٩] وجد في قسمه الجنوبي قطبان مهمان أصبحا بمثابة همزتي وصل بين المغرب وبلاد السودان وهما تنبكت وكاغو.[١٠]

ومع نهاية القرن الخامس عشر، تحولت التجارة العابرة للصحراء من طريق سجلماسة الذي فقد أهميته إلى طريق درعة الشرقية[١١] الذي أصبح الطريق الرئيسي بالنسبة للقوافل التجارية المتجهة صوب بلاد السودان، كما زادت أهمية وادي نون (تگاوست) بفضل العلاقات التجارية مع أوربا، وقد أكد الحسن الوزان هذه الأهمية.[١٢] وساعدت مجموعة من العوامل على جعل المحور الغربي أو "طريق اللمتوني" يحظى بهذه الأهمية ويبدو أكثر رواجًا من باقي المحاور الأخرى"،[١٣] نذكر منها غنى هذا المحور ببعض الموارد الطبيعية كالملح في إجيل، والذهب بتنبكت،[١٤] ناهيك عن وجود وحدة عرقية امتدت من جبال الأطلس إلى منطقة الساحل، انضافت إلى التجانس والوحدة الدينية التي تميزت بها المنطقة منذ العهد المرابطي وسمحت بقيام روابط متينة بين واجهتي الصحراء.[١٥]

وقد شكلت فاس مرحلة مهمة من المراحل التي مر منها هذا المحور، والتي يمكن تتبعها على الشكل الآتي: فمن فاس إلى المجابة الكبرى عبر الجنوب المغربي، تفرع المحور الغربي إلى فرعين، أولهما كان ينطلق من فاس نفسها في اتجاه سوس وبالضبط ميناء ماسة عبر طريق مراكش وتارودانت،[١٦] ليتوجه بعد ذلك نحو الغرب بمحاذاة المحيط الأطلسي عبر وادي نون والساقية الحمراء، ويمر بعد ذلك عبر ملاحة إجيل في اتجاه ودان ومنها إلى تنبكت عبر تشيت.[١٧] ولعل أهم جزء في هذا الطريق، هو الذي امتد من إجيل إلى تنبكت، لأن الأولى وفرت الملح، والثانية مادة الذهب،[١٨] أما الفرع الثاني، فامتد كذلك من فاس إلى سجلماسة عبر طرق الأطلس المتوسط المنطلقة من بزو، ودمنات مرورًا بأودية دادس وتدغة، وغريس، أو عبر ممر تيزي نگلاوي، وورزازات، نزولاً مع وادي درعة إلى بلاد كتاوى (بني صبيح)، ومن سجلماسة ينطلق نحو ودان، ليصل بعد ذلك إلى تنبكت عبر ولاتة بعد تجاوزه للمجابة الكبرى.[١٩]

وتميز القرن السادس عشر بكون الطرق التجارية الكبرى التي جمعت بين المغرب والسودان الغربي هي نفس الطرق التي وجدت سابقًا مع اختلاف نسبي من حيث أهميتها،[٢٠] فمع بداية هذا القرن أصبحت درعة الشرقية هي الطريق الرئيس للقوافل التجارية المتوجهة من بلاد السودان صوب مراكش وفاس.[٢١] ومن أهم

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المحاور التجارية التي سمحت بقيام مبادلات تجارية هامة بين المغرب وبلاد السودان خلال هذه الفترة والذي كانت مدينة فاس حاضرة فيه بقوة، المحور الأوسط المباشر: درعة- تغازى –تنبكت، ولاسيما مع بداية سنة ١٥٩١ بفعل الأمن الذي أصبح يتمتع به والأهمية البالغة التي أصبح يكتسيها في العلاقات التجارية مع بلاد السودان، لاسيما وأن الشرفاء السعديين أقاموا حاميات عسكرية قوية بمنطقة، درعة[٢٢] وتمكن السلطان من التحكم في ممالح تغازى الشرقية التي شكلت نقطة لتوقف القوافل التجارية من أجل التزود بمادة الملح ونقلها إلى تنبكت لاستبدالها بالذهب.[٢٣]

وفي النصف الأول من القرن السادس عشر، وجد طريق مباشر آخر أقصر من الطرق الأخرى، ربط توات وگورارة بگاو عاصمة الأساكي،[٢٤] وكان يمر شرق الأطلس الكبير، وسلكته قوافل فاس وتلمسان المتجهة صوب گاو وأغاديس، إذ كانت هذه القوافل – في طريقها نحو بلاد السودان– تلتحق بفگيگ، وتنحدر مع وادي زوسفانة، ثم وادي الساورة المؤدي إلى بستان النخيل (Tesabit تصابيت) وهي ملحقة غربية لتگورارين أو گورارة،[٢٥] وقد سمح هذا المحور لگاو العاصمة السياسية لمملكة الصنغاي بأن تصبح على اتصال مستمر مع حوض البحر الأبيض المتوسط.[٢٦] وخلال القرن السابع عشر تحول النشاط التجاري من خط تنبكت درعة مراكش إلى خط تنبكت توات الجزائر، الذي وجد قرب تافيلات التي ظلت تستفيد منه بحكم قربها من توات ولكونها شكلت الملتقى الرئيسي للطرق الصحراوية في بداية القرن السابع عشر، وأهم طريق تجاري بالمغرب،[٢٧] ولذا أصبحت تستقبل تجار فاس وشمال المغرب ودرعة والتجار المتوجهين نحو بلاد السودان.[٢٨]

وهكذا؛ فإن فاس أصبحت بفضل المحاور التجارية التي امتدت منها في اتجاه بلاد السودان حلقة للتواصل والتفاعل الحضاري الذي تم بين الطرفين.

- **أهميتها السياسية والعلمية** جعلت منها تجمعًا حضريًا واقتصاديًا كبيرًا، و"قادرة على تلبية حاجيات التجارة الصحراوية "بالعديد من السلع والمنتوجات الحرفية لاسيما منها المنسوجات والمواد الفخارية.[٢٩]
- **دور الوساطة التجارية** الذي اضطلعت به بين الواجهة الصحراوية والعالم المتوسطي.[٣٠]
- **دور تجار فاس** في العلاقات التجارية التي تمت بين المغرب وبلاد السودان، حيث وجد بالمغرب تجار متخصصون لهم وكلاء تجاريين بالمراكز التجارية السودانية والصحراوية، كتنبت، وأروان،[٣١] وقد تزايد إقبال هؤلاء التجار على نقل بضائعهم من وإلى المغرب، وتشير المصادر السودانية إلى الحضور المتميز للتجار الفاسيين في السودان الغربي،[٣٢] إذ لم يتوانوا عن تنظيم الأسفار إلى "بلاد التبر" من أجل التزود بهذه المادة،[٣٣] حيث كانوا ينتقلون بين مدينتهم ومدن "بلاد السودان" حاملين البضائع. وفي هذا الإطار يشير "ديوغو غوميز" في نهاية القرن الخامس عشر إلى أنهم كانوا يتوافدون على مدينة گاو التي كانت آنذاك من أهم أسواق الذهب في امبراطورية صنغاي، ليعودوا منها مصحوبين بالذهب.[٣٤]

وإلى جانب هؤلاء التجار الذين اختاروا التنقل بين فاس والأسواق السودانية، فضل البعض الآخر الاستقرار بصفة نهائية في هذه الأخيرة والانصهار في المجتمع السوداني، ويتعلق الأمر هنا بممثلي الشركات التجارية بشمال الصحراء الذين كانوا يفضلون البقاء بشكل دائم في المدن السودانية من أجل الإشراف على تسيير أعمالها، دون إغفال الدوافع السياسية التي كانت وراء هجرة بعض التجار إلى جنوب الصحراء، إذ اعتمادا على ما أورده لوتورنو، فإن بعض تجار مدينة فاس هربوا إلى السودان على إثر تعرض ثروتهم للمصادرة من طرف أحد ولاة المولى عبد الله سنة ١٧٣٣- ١٧٣٤.[٣٥] كما قام بعض الرحالة، ومنهم الحسن الوزان، بعمليات تجارية لحسابهم الخاص، حيث انطلق من فاس في اتجاه سجلماسة، ثم تغازى، ومنها إلى أروان، ليصل في النهاية إلى تنبكت في يناير[٣٦] ١٥١٣.

- **دور الزوايا**، التي شكلت إحدى القنوات التي تمت عبرها المبادلات التجارية التي لم تنقطع بين طرفي الصحراء الكبرى،[٣٧] لاسيما بعد أن تعززت قوتها وأصبحت تضطلع بمهام كانت تقوم بها عادة سلطة مركزية قوية،[٣٨] ويمكن أن نذكر هنا الطريقة التيجانية التي كان لها حضور فاعل في هذه العلاقات التجارية، حيث شجع المولى سليمان جميع الأنشطة التجارية التي كانت تقوم بها في اتجاه إفريقيا الغربية.[٣٩]

وإذا كان هذا هو دور فاس في العلاقات التجارية التي تم نسجها بين ضفتي الصحراء خلال الفترة المحددة بفضل مجموعة من العوامل المساعدة، فما هو الدور الذي اضطلعت به هذه المدينة من الناحية الثقافية والروحية في العلاقات التي التاريخية التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان؟ وما هي مظاهر هذا التواصل؟

ثانيًا: دور فاس في العلاقات الثقافية والروحية التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان ومظاهر هذا التواصل

بحكم العلاقات التاريخية التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان، انتقلت إلى بلاد المغرب مؤلفات علماء السودان والعكس صحيح، ومن المدن المغربية التي لعبت دورًا فعالاً في "نشر الثقافة الإسلامية العربية في الصحراء وجنوبها، وطبعت ثقافتها بالطابع المغربي الصميم"،[٤٠] وحظيت بالنصيب الأوفر من التراث السوداني المخطوط مدينة فاس لعدة اعتبارات نذكر منها، أنها بالإضافة إلى مكانتها السياسية والدينية والتجارية، كانت هي العاصمة العلمية للبلاد، مما جعل أهل بلاد السودان يتوافدون عليها لقضاء مآربهم،[٤١] كما كان أهل فاس بدورهم وكغيرهم من المغاربة يشدون الرحال إلى بلاد السودان، "كتجار وأدباء وفقهاء وسفراء فحملوا معهم الكتاب المغربي"، وعادوا بنظيره السوداني، ولعل خير دليل

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

على ذلك "المخطوط السوداني الموجود في بعض الخزائن الفاسية".[٤٢]

ومن أوجه التواصل الفكري والثقافي بين فاس وإفريقيا، طبع المؤلفات السودانية بها لوجود المطبعة الحجرية، ومن المصنفات التي طبعت، بعض مصنفات أحمد بابا التنبكتي ،"كإرشاد الواقف"، و"فتح الرزاق"، و"كتاب نيل الابتهاج"...،[٤٣] هذا بالإضافة إلى اهتمام المغاربة بما كان يجري بتلك البلاد "بحكم الموقع والجوار ووحدة الدين واللغة والمصير".[٤٤] ومن مظاهر التواصل بين فاس وإفريقيا جنوب الصحراء كذلك، "زيارة أهل السودان لفاس لأسباب مختلفة، سفارية، ثقافية، دينية"،[٤٥] حيث لم يكن حوض نهر النيجر بعيدًا عن الإصلاحات والانتفاضات التي عمت العالم الإسلامي في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين وما تلاهما، إذ كانت الأنباء تنتقل من مكان إلى آخر في العالم الإسلامي" عن طريق التجار، ومواسم الحج، والسفر والهجرة، والرحلة لطلب العلم، بالإضافة إلى المراسلات بين متعلمي البلاد الإسلامية وعلمائها.[٤٦] ففيما يخص الرحلات العلمية، فقد ساهمت بدور فعال في تعميق الاتصال بين المغرب وبلاد السودان وتمتين العلاقة بين طلبتهما وعلمائهما، إذ وفد على فاس – وكذا مراكش- عدد من طلاب وعلماء السودان من تنبكت وغيرها، ودرس كثير من هؤلاء الطلبة في القرويين.[٤٧]

كما توالى على غرب إفريقيا، عدد كبير من العلماء والمثقفين من مختلف المراكز الثقافية المغربية ومنها مدينة فاس، للتدريس في مدارس ومساجد تنبكت وجني وغيرهما من الحواضر السودانية،[٤٨] ومن بين هؤلاء، الفقيه عبد الرحمن التميمي الذي درس الفقه المالكي بفاس ليتمكن من مضاهاة علماء السودان، ثم رحل إلى تنبكت ليدرس في مسجد سنكري،[٤٩] ومخلوف بن علي بن صالح البلبالي الذي درس في ولاتة مبادئ العلوم ورسالة أبي زيد في الفقه، ورحل إلى المغرب حيث حضر دروس علي بن غازي المكناسي بفاس، ثم عاد إلى السودان للتدريس بكانو وكاسينا، و"حن إلى المغرب فشد الرحال إلى مراكش حيث مات مسمومًا سنة ١٥٣٣ بعد عودته الثالثة إلى السودان،[٥٠] والفقيه المغربي سقين شيخ المنجور، الذي كان عالمًا بالحديث، ورحل إلى بلاد السودان مرتين، مرة أولى وهو في طريقه إلى الحج، ومرة ثانية أقام فيها وأنجب الأولاد،[٥١] هذا بالإضافة إلى العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي ولد بتوات، وانتقل إلى فاس بهدف الدراسة العليا، وهاجر إلى السودان حيث أصبح أكبر أستاذ في تگدة، وگاو و كانو، واتصل في گاو بالأسكيا الحاج محمد الذي استدعاه وناقش معه مجموعة من المشاكل الفقهية.[٥٢]

ولم تختلف البرامج الدراسية والكتب المعتمدة لدى أهل السودان عما كان مقررًا في فاس من كتب وبرامج، ومن المؤلفات المغربية عندهم نذكر"الشفا" للقاضي عياض، و"دلائل الخيرات" للجزولي، و"مقدمة ابن آجروم"، و"الطرفة في مصطلح الحديث" لمحمد العربي الفاسي، و"شرح الحكم العطائية" للشيخ زورق الفاسي، و"جامع المعيار" للونشريسي، وغيرها.[٥٣] ولم يقتصر علماء بلاد السودان على دراسة هذه الكتب وروايتهم لها بالسند، بل وضعوا شروحًا وحواشي وتعاليق على بعضها أو اختصروا بعضها الآخر، وصارت بعض هذه الشروح معتمدة بدورها في الدراسة في مدارس فاس، مثل شرح الأجرومية "الفتوح القومية" الذي أصبح من الكتب الدراسية بالقرويين.[٥٤] أما الإجازات والأسانيد، فتلتقي فيها الأسماء السودانية والمغربية التقاء حميميًا وتتداخل تداخلاً كبيرًا، ويتضح ذلك من خلال ما يستعرضه صاحب فتح الشكور من أسانيد وإجازات، وما يذكره من مسلسلات ومشابكات.[٥٥]

ومن مظاهر الصلات الفكرية والثقافية بين فاس وإفريقيا جنوب الصحراء، الرسائل والمكاتبات السودانية التي تزخر بها المخطوطات الموجودة في خزائن فاس، كرسالة الأمير محمد الباقر أمير أهير إلى المولى سليمان، و"شكاية الدين المحمدي إلى رعاية الوكلين به" لأحمد بن القاضي الفوتي التنبكتي إلى المولى سليمان، وهي رسالة في البدع يشير فيها إلى زيارته لمدينة فاس وانتشار فساد العبيد في البلاد الإسلامية من المغرب إلى تركيا.[٥٦] ومن مظاهر وتجليات هذه الروابط والصلات كذلك، الفنون وطريقة الكتابة، "فالفنون الإسلامية في السودان وطريقة الكتابة عند أهلها لا تختلف عما هو معروف عند المغاربة في الهندسة ونقوشها، والخط وإعجام الحروف وترتيبها"، ويظهر ذلك بشكل جلي "فيما تحفل به جدران المساجد السودانية من خطوط مختلفة وما تتحلى به من رسوم و آيات قرآنية"، فطريقة بناء هذه المساجد ونقوشها التي استخدم فيها الخط الكوفي والخطوط الهندسية والآيات القرآنية بالخط الفاسي كل ذلك يدل على التأثير المغربي الواضح.[٥٧]

كما احتضن أهل هذه المنطقة الطرق الصوفية الوافدة من المراكز الثقافية المغربية، بل إن هذه الزوايا شكلت في حد ذاتها إحدى مظاهر وتجليات الروابط والصلات الثقافية التي جمعت بين الطرفين والتي كانت لها انعكاسات إيجابية عديدة على الجانبين،[٥٨] وقد كانت مدينة فاس حاضرة بقوة في هذه الصلات من خلال الدور الفاعل الذي اضطلعت به الزاوية التيجانية في هذا التواصل والتفاعل الحضاري الذي تم بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء،[٥٩] إذ انطلق إشعاع هذه الزاوية من هذه المدينة ليخترق خلال القرن التاسع عشر الصحراء وبلاد السودان "مضيفًا لبنات جديدة في صرح الصلات والروابط" التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان،[٦٠] وقد تم ذلك على يد الشيخ سيدي أحمد التيجاني،[٦١] أما وصولها إلى بلاد شنقيط، فكان على يد الشيخ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي الذي جعل منها شعارًا لقبائل إدا وعلي التي اعتبرت صلة الوصل الأساسية بين فرعي التيجانية بالمغرب والصحراء وما وراءها.[٦٢] ويرجع انتشار هذه الطريقة ببلاد السودان إلى استقرار العلويين بعدة مراكز وببلاد الترارزة، وبلغت أوجها باعتناق الحاج عمر الفوتي التوري لها، مؤسس أول

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

امبراطورية تيجانية عن طريق الجهاد سنة ١٨٩٤.[٦٣] ويرجع الفضل إلى هذه الطريقة في القضاء على الصراعات القبلية، حيث انصهرت القبائل الإفريقية التي اعتنقتها في بوثقة واحدة تجلت في تعاليم الحضارة الإسلامية، كما ساهمت في نشر الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء، وشكلت صلة وصل بين مسلمي الشمال والجنوب من خلال تبادل الزيارات والآراء والأفكار.[٦٤]

خاتمة

من خلال ما سبق، يتضح مدى الدور الفاعل والوازن الذي اضطلعت به مدينة فاس خلال العصر الحديث وبداية المعاصر، كحلقة للتواصل التجاري والثقافي والروحي بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، كان لها الفضل في حدوث تلاقح وتفاعل حضاري، وظهور تراث مغربي – إفريقي مشترك سيظل شاهدًا عبر التاريخ على عمق الروابط والصلات بين الجانبين.

الهوامش:

(*) أنجزت هذه المداخلة من أجل المشاركة بها ضمن كتاب تكريمي لفائدة الأستاذ التونسي الفذ هشام جعيط اعترافًا له بما قدمه من أعمال جليلة لفائدة الفكر والإبداع والبحث العلمي ،ولاسيما فيما يتعلق بالقضايا الشائكة المرتبطة بالفترة الإسلامية الأولى التي لا تزال تشغل الفكر الإسلامي.

(**) "**مدينة فاس**"، موقع وزارة الثقافة، المملكة المغربية: (http://www.minculture.gov.ma). "**مدينة فاس سحر الحاضر وعبق التاريخ**"، جريدة البيان، دبي بتاريخ ٦ يوليو ٢٠١٢، متاح على الرابط: (http://www.albayan.ae)

(١) مزين (محمد)، "**المغرب وبلاد السودان**"، مذكرات من التراث المغربي، عدد٣، ١٩٨٥، مطبعة Altamira.S.A، مدريد، ص.٢١٢.

(2) Ajayi, J.Fade et Crowder, Michel : **L'Afrique Occidentale a ux XVIs**. Atlas historique, les éditions du Jaguar, Paris, 1988, p.78.

(٣) العلوي (عبد العزيز)، **فاس والتجارة الصحراوية قبل الحملة السعدية على امبراطورية سنغاي (فرضيات ووقائع)**. أعمال الندوة الدولية حول: فاس وإفريقيا- العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية. منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات ٣، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس، ٢٨ – ٣٠ أكتوبر ١٩٩٣، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٩٩٦، ص٨١. وعماري (الحسين)، **المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن XV إلى القرن XVIIIم**، إسهام في دراسة تاريخ المغرب وعلاقاته التجارية مع السودان الغربي في العصر الحديث. أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، نوقشت برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (تحت إشراف الأستاذين مصطفى ناعمي وزهرة طموح)، بتاريخ ٢٠٠٣/٠٧/٠١،ج ١، ص١٥٧.

(٤) العلوي (عبد العزيز)، م.س، ص ٨٢ - ٨٧.

(5) Cissoko Sekéné Mody: **Tombouctou et l'Empire Songhay**. Epanouissement du Soudan Nigérien au XV-XVIIs. Les Nouvelles éditions africaines, Dakar –Abidjan, 1975, p.60.

وعماري (الحسين)،م.س، ص١٠٨.

(6) Cissoko,Sekéné, Mody :op.cit.,p.60.

(٧) Abitbol, (Michel): **Tombouctou et les Arma de la conquête Marocaine du Soudan Nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'Empire Peulh du Macina en 1833**. Editions Maison neuve, Paris, 1979, p.24.

(8) Devisse, (J): "**Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale En relation avec la Méditerranée, un essai sur le commerce africain médieval du XI au XVIs**", R.H.E.S, 1972, p.370.

(9) Issifou, Z.Dramani: **Les XIV et XVs dans les relations entre l'Afrique (Soudan Occidental) et la Méditerranée**. C.I.A.C.I.R.S. Paris. A.VI^{ème}.C.E.A. Sur: **l'histoire du Sahara et des relations transsahariennes entre le Maghreb et l'ouest africain du Moyen àge à la fin de l'époque coloniale**, Erfoud 20 – 25 Oct 1985. Gruppo walk over .Bergamo –Italia 1986, p.103.

(10) Cissoko Sekéné Mody: op.cit., p.136.

(11) Meunié,(J): **le Maroc Saharien des origines au 17 ^{ème}s** Volume I ,librairie Kline Kiek, 1982. p.393.

(١٢)الوزان (الحسن بن محمد)، **وصف إفريقيا**. تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، جزء٢، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط٢، بيروت،١٩٨٣، ص ١٠٨-١٢٠. وعماري (الحسين)، م.س، ص١١٢.

(١٣)عماري (الحسين)، م.س، ص١١٢.

(14) Abitbol, (Michel) :**Tombouctou et les Arma**, p.24. Et Devisse,(J) :op.cit., p.388.

(15) Abitbol, (M): op.cit.,p25.

(16) Ibid., p.24

دورية إلكترونية .محكمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(17) Ibid. et Issifou, Z. Dramani: **l'Afrique Noire dans les relations Internationales au XVIs**, Analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhai. Editions Karthala, Paris, 1982, p.103.

(18) Devisse, (J): op.cit., p388.

(١٩)عماري (الحسين)، م.س، ص١١٥.

(20) Brignon, (J) et autres: **Histoire du Maroc**. Hatier, Paris 6ème Librairie Nationale, Casablanca, 1967, p.191.

(21) Meunié, (J) :op.cit.396.

(22) Ibid., p.875.

(23) Ibid.

(24) Brignon, (J) et autres: op.cit.191.

(٢٥)الوزان (الحسن)، **وصف إفريقيا**، ج٢، ص١٣٣.

Meunié, (J): op.cit., marge82, p.875.

(26) Issifou, Z.Dramani: l'Afrique Noire ...,p.104.

وعماري (الحسين)، م.س، ص١٢٢.

(٢٧)عماري (الحسين)،م.س،ص.١٢٧.

Mezzine, (L): **le Tafilalt. Contribution à l'histoire du Maroc aux XVII et XVIII** P.F.L.S.H. Rabat, Série Thèses 13, 1995, p.288. Et Brignon, (J) et autres: op.cit., pp.220 - 221.

(28) Lemprière, (W): **Voyage dans l'Empire du Maroc et le Royaume de Fez (1790-1791)** traduction de l'Anglais par M de Sainte Suzanne, Paris Travennier 1801, pp.286-287.

(٢٩)العلوي (عبد العزيز)، م.س، ص٨٣ - ٨٥.

تم الكشف عن بقايا خزفية ملونة ومزينة بالرسوم في عدة مواقع سودانية، يرى رايمون موني أنها من صنع مغربي أو أندلسي العلوي (عبد العزيز)، م.س، ص٨٥.

Mauny, (R): **Découverte à Gao d'un fragment de la poterie émaillée du Moyen âge Musulman**, Hésperis -Tamuda, T.39, Rabat, 1952, pp.514-516.

(٣٠)العلوي (عبد العزيز) ،م.س،ص.٨٧.

(31) Deschamps, (H) : **Histoire de la traite des noirs de l'antiquité à nos jours Fayard**, Paris, 1971, p.232.

(٣٢)العلوي (عبد العزيز)، م.س، ص٧٥.

(٣٣)نفسه، ص٨٩.

(٣٤)نفسه، ص ٨٩ - ٩٨.

(٣٥)نفسه، ص ٥٨ -٩٩. وهامش١٠٦، ص٩٩.

(36) Mauny, (R): "**Notes sur les grands voyages de Léon l'Africain**". Hésperis, Tome XII, Année1954 3ème et 4ème trimestre, p.389.

(37) Abitbol, (M): T et les A, p.12.

(٣٨)عماري (الحسين)، م.س، ص١٨٣.

(39) Abitbol,(M): op.cit.,p.187.

(٤٠)الولاتي (أبو عبد الله الطالب البرتلي)، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١، ص٧.

(٤١)الصادقي (حسن)، **مخطوطات في موضوع فاس وإفريقيا**، ضمن أعمال الندوة الدولية حول فاس وإفريقيا العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية التي نظمها معهد الدراسات الإفريقية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس - فاس، فاس، ٢٨ – ٣٠ أكتوبر ١٩٩٣، ص١٥.

(٤٢)المرجع نفسه والصفحة.

(٤٣)نفسه، ص١٨..

(٤٤)نفسه.

في هذا الإطار، يمكن أن نشير إلى صدى حركة عثمان بن فودي الإصلاحية، مؤسس إمارة سوكوتو الإسلامية التي داع صيتها بالمشرق والمغرب، وارتكزت أساسًا على محاربة البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الجهاد في سبيل الله ...، بالإضافة إلى المراسلات التي تبودلت بين المولى سليمان وعثمان بن فودي نفسه، أو بعض الأمراء السودانيين. (المرجع نفسه، ص١٩).

(٤٥)نفسه، ص٢٢..

(٤٦)حمودي (هادي حسن) **الإسلام في غرب إفريقيا من النفوذ إلى الانتشار**. ضمن ندوة أحمد بابا التمبكتي التي عقدتها إيسيسكو، مراكش ٢ - ٥ شتنبر١٩٩١، منشورات إيسيسكو ١٤١٤هـ/١٩٩٣، ص٤٧.

(٤٧) شوقي (عطا الله الجمل)، **تنبكت وعلاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي وتحت الحكم المغربي**، المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، وقائع الندوة الدولية التي نظمها معهد الدراسات الإفريقية، مراكش ٢٣ - ٢٥ أكتوبر١٩٩٢، ص٥٣. والظريف (محمد)، **التواصل الثقافي بين المغرب والسودان خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين**، ندوة أحمد بابا التمبكتي، م.س، ص ٦٣.

(٤٨)عماري (الحسين)، م.س، ج٢، ص٣٣٣. والظريف (محمد)، م.س، ص٦٣.

(٤٩)السعدي (عبد الرحمن)، **تاريخ السودان**. تحقيق هوداس وبنوة، مكتبة أمريكا والشرق، باريس، ١٩٨١، ص.٥٧. والظريف (محمد)، م.س، ص٦٣. وزبادية(عبد القادر)، **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (١٤٩٣-١٥٩١)**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،١٩٧١، ص١٤٤.

(٥٠)زبادية (عبد القادر)، م.س، ص١٤٨. والغربي (محمد)، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢، ص٥١٧.

(٥١)حجي(محمد)، **محاضرات السلك الثالث**، السنة الجامعية ١٩٨٨/٨٧، شعبة التاريخ، تخصص دراسات إفريقية.

(٥٢)الغربي (محمد)، م.س، ص٥١٤.

(٥٣)الولاتي (أبو عبد الله الطالب البرتلي)، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، ص١٠-١١.

(٥٤)نفسه، ص١١.

(٥٥)نفسه، ص ١١٦- ١١٧.

(٥٦)الصادقي (حسن)، **مخطوطات في موضوع فاس وإفريقيا**، ص٢٢ - ٢٣.

(٥٧)نفسه، ص٦٠. وشوقي (عطا الله الجمل)، **الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا**. المناهل، عدد ٧ ، ١٩٧٦، ص١٥٨.

(٥٨)عماري (الحسين)، **الزوايا كقناة للتواصل التجاري والثقافي والروحي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الحديث وبداية المعاصر**. المناهل، عدد٨٠ - ٨١، ملف الزوايا في المغرب، ج١، فبراير٢٠٠٧، ص٢٨٢.

(٥٩)نفسه.

(٦٠)الأزمي (محمد)، **دور الزاوية التجانية في تمتين الروابط بين مدينة فاس وإفريقيا جنوب الصحراء**. ضمن أعمال الندوة الدولية حول فاس وإفريقيا العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية التي نظمها معهد الدراسات الإفريقية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس- فاس، فاس، ٢٨-٣٠ أكتوبر ١٩٩٣، ص٢٤٦.

(٦١)**الشيخ سيدي أحمد التيجاني**: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سليم التيجاني، ولد حوالي سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م بواحة عين ماضي جنوب مدينة لغواط بالجزائر، حل بفاس لاستكمال دراسته سنة ١١٧١هـ/١٧٥٧م، فتعرف على مختلف الطرق الصوفية، وأخذ العلم على عدد من فقهاء القرويين، ثم توجه إلى تلمسان ومنها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ليستقر في نهاية المطاف بأبي سمغون في الصحراء، وتحت ضغط السلطات العثمانية استقر بمدينة فاس سنة ١٧٩٦، حيث استقبل بحفاوة كبرى من طرف الرعية والسلطان المولى سليمان وبحكم معارضة الزوايا لنشاطه، نصح أبناءه بالعودة بعد وفاته إلى أبي سمغون وعين ماضي، وهذا ما حصل بالفعل سنة ١٨١٥، إذ تفرعت الطريقة إلى زاوية تماسني نسبة إلى الشيخ سيدي علي التماسي الذي عينه الشيخ سيدي أحمد خليفة له قبل وفاته، وزاوية عين ماضي ممثلة من طرف أحفاد سيدي أحمد التيجاني. راجع: الأزمي (أحمد)، م.س، ص٢٤٢ - ٢٤٤. وصابر (شريف خالد)، **دور مدينة فاس في نشر الطريقة التيجانية في إفريقيا جنوب الصحراء**، أعمال الندوة الدولية حول فاس وإفريقيا العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية ...، ص٢٣٧، وهامش(٤)، الصفحة نفسها.

(٦٢)الأزمي (أحمد)، م.س، ص٢٤٦. وطموح (فاطمة الزهراء)، **إفريقيا والمغرب**، معلمة المغرب، عدد(٢)، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، نشر مطابع سلا، ١٩٨٩، ص٥٥٧.

(٦٣)طموح (فاطمة الزهراء)، **إفريقيا والمغرب**، ص٥٥٧.

(٦٤)صابر (شريف)، م.س، ص٢٣٩.

دورية إلكترونية .محكمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449